تعارض السنة النبوية في الفكر الحداثي وتحديات الفهم المقاصدي للخطاب النبوي

The Contradiction of the Prophetic Sunnah in Modernist Thought and the Challenges of Intentional Understanding of the Prophetic Discourse

يوسف علاوي[1] ، صالح عومار[2]

[1] مخبر البحث في الدراسات القرآنية والسنّة النّبويّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر)، y.allaoui@univ-emir.dz

[2]مخبر البحث في الدراسات القرآنية والسنّة النّبويّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر)، s.oumaar@univ-emir.dz

تاريخ الاستلام: 2024/03/25. تاريخ القبول: 2024/06/03 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

يتناول البحث دعاوى الحداثيين بوجود تعارض في الأحاديث النبوية، وطعوناتهم في السنّة النبوية. يناقش البحث القراءة الحداثية للأحاديث النبوية، وادعاءاتهم بوجود التعارض بين الأحاديث، وكذا مع القرآن الكريم، ومع غير ذلك من أصول الدين. يُقدم البحث نقدًا لهذه الدعوى، ويسعى إلى إبطالها من خلال كشف حقيقة التّعارض وإزالته، ويبين دلالته وأثره السلبيّ على مقاصدية الخطاب النّبوي الشريف، ويخلص أخيرًا إلى أهم النتائج.

كلمات مفتاحية: الحداثة، السنّة النبوية، تعارض، المقاصد، الخطاب.

Abstract:

The research investigates the claims of modernists regarding the existence of contradictions in the Prophetic hadiths and their attacks on the Prophetic tradition. It discusses the modernist interpretation of the Prophetic hadiths, their claims of contradictions between the hadiths themselves, as well as with the Quran and other religious sources. The research provides a critique of this claim and seeks to refute it by revealing the reality of the contradiction and removing it. It also explains its significance and negative impact on the purposefulness of the Prophetic discourse, and finally concludes with the important results.

Key words: Modernity, Prophetic Sunnah, Contradiction, Objectives, Discourse.

المؤلف المرسل: يوسف علاوي، **الإيميل:** y.allaoui@univ-emir.dz

1. مقدمة:

تحظى السنّة النّبوية بمكانة عظيمة في الدين، إذ هي ثاني الوحيين ومصدر ثانٍ من مصادر التشريع؛ جاءت مبيّنة لما أُجمل في القرآن الكريم، شارحة ومفصلة له، فصار حفظها من حفظ القرآن، وقد حرص السلف الصالح من الصحابة ومن جاء بعدهم على تلقّي السنّة بالحفظ والضبط التام، وأدائها لمن بعدهم على أكمل وجهٍ، واجتهدوا في كشف المعاني الخفية في الأحاديث النّبوية، والتي توهم مخالفةً في الظاهر للأدلة القطعية، حيث استشكل الصحابة رضي الله عنهم بعض الأحاديث وعرضوها على النّبي صلى الله عليه وسلم لإزالة ذلك التّعارض، وهكذا توارث أهلُ العلم بعده مالحرصَ على السنَّة وعلومها ودفع ما يُستشكل حولها، وتقرير القواعد العلمية من أجل حفظها، وبيان مقاصدها للناس كما أرادها النّبي صلى الله عليه وسلم.

بالرغم من هذه المنزلة التي نالها الحديث النّبوي، إلا أنّه تعرّض قديما وحديثا للنقد والطعن من مختلف الشرائح والفِرق، إذ أفنوا جهودهم فينقدها بغرض التقليل من شأنها، وفق آراءٍ واتجاهات استحدثوها، ومن هذه الاتجاهات المعاصرة التي ذاع صيتها على نطاق واسع خاصة مع التطور الذي شهدته وسائل التواصل ووسائل الإعلام: الاتجاه الحداثي، حيث اهتم الحداثيون بالحديث النّبوي كونه بالنسبة إليهم شيئاً من التراث، وتعرّضوا له من جميع النواحي، فصنّفوا في ذلك مصنفاتٍ وألّفوا فيه مؤلفاتٍ، ومن أهمّ ما يدرسه روّاد هذا الاتجاه: ادّعاؤهم التناقض بين الأحاديث النّبوية بعضها مع بعض أو تعارضها مع القرآن الكريم، أو مع العقل أو الحس، أو غير ذلك من القواعد الشرعيّة، فتجدهم يتصيدون كل ما يوهمُ ظاهره التّعارضَ لجعلِه ذريعةً لردّ الأحاديث النّبوية، وهذا ما يؤثّر سلباً على فهم الخطاب النّبوي الشريف ومقاصده.

إنّ الخطاب النّبوي يُعدُّ في أعلى درجة وأرقى مستوى من حيث القدرة على البلاغة والفصاحة، والإقناع والتأثير، فالنّبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب قاطبة وهو المعصوم بالوحي صلى الله عليه وسلم، ولا عجب أن يسعى الحداثيون جاهداً لإسقاط هذه المكانة الجليلة، قدحاً منهم في وسيلة تبليغ رسالة الإسلام، ومن هنا كانت فكرة البحث المتمثلة في دراسة نماذج مما استدلت به القراءة الحداثية في الطعن في الأحاديث النّبوية، انطلاقاً من

دعوى التّعارض في الأحاديث النّبوية، ونقد ذلك وبيان أثره على مقاصد الخطاب النّبوي الشريف.

الإشكالية المطروحة بهذا الصدد تتمثل في ما يلي:

ما مدى صحّة دعوى الحداثيين في التعارض في الأحاديث النّبوية؟ وما دلالة ذلك على قصدية الخطاب النّبوي الشريف؟

الفرضيات:

– دعوى الحداثيين في وجود التعارض في الأحاديث النبوية دعوى غير صحيحة.

– أدلة الحداثيين في دعوى التعارض غير مقنعة وادّعاؤهم ليس قائم على أُسُسٍ علميّة.

–هذه الدعوى تؤثر سلبا على الفهم المقاصدي للسنة النبوية

– غرض الحداثيين من هذا الادعاء هو الطعن في السنة النبوية.

أهداف البحث:

–يهدف البحث إلى الدّفاع عن السنّة النبوية ضدّ ما تتعرض له من قدحٍ وطعنٍ بغرض التقليل من شأنها.

–بيان مكانة السنّة النبوية في الدين.

–التطرق لقراءةٍ من القراءاتِ المعاصرة التي تناولت الحديث النّبوي وهي الدراسة الحداثية.

–الردّ على شبهات الحداثيين التي أثاروها حول الأحاديث النّبوية.

–الكشف على مناهج القراءة الحداثية في تعاملها مع نصوص السنّة النبوية وبيان مدى علميّتها.

–إبطال دعوى التعارض بين الأحاديث النبوية وغيرها من النصوص والقواعد الشرعية.

–بيان المقاصد العظيمة للخطاب النّبوي الشريف بالرغم من المحاولات اليائسة لتشويه هذه المقاصد.

منهجية البحث:

المنهج المعتمد في هذا البحث هو التحليلي النقدي وذلك بانتقاء نماذج من الأحاديث النّبوية قد استشكلها الحداثيون ورأوا أنها متناقضة مع غيرها من النصوص والقواعد الشرعيّة، ثمّ تتبّع هذه المواضع وتحليلها ببيانِ وجه الاستشكال فيها، ثم ردّ ذلك الاستشكال ونقده نقدا علميا، وبيان أثر ذلك على مقاصد الخطاب النّبوي الشريف، كل ذلك انطلاقاً من كلام العلماء وشرّاح الحديث.

تتضمن خطة البحث على مقدمة يعقبها مطلب التعريف بالمصطلحات والمفردات المرتبطة بالدراسة، يأتي بعدها مطلب استكشاف دعوى تعارض الأحاديث بعضها مع بعض، ومطلب تحليل التعارض مع القرآن ، ومطلب آخر في التعارض مع النّظر، وخاتمة تُلخص النتائج الرئيسية للبحث وتقدم التوصيات المهمة، ثم قائمة المصادر المراجع.

2.التعريف بمصطلحات ومفردات البحث.

1.2 مفهوم الحداثة

أ-الحداثة لغة: مصدرها من الفعل حدث يحدث حدوثا وحداثة واستحدثتُ خبراً: أي وجدتُ خبراً جديداً، ومحدثات الأمور ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها. (ابن منظور،1414هـ، ج2، ص 131)

ب-الحداثة اصطلاحا: تعدّدت تعاريف الحداثة وأشملها: "محاولة صياغة نموذج للفكر والحياة يتجاوز الموروث ويتحرر من قيوده لتحقق تقدم الإنسان ورقيّه بعقله ومناهجه العصرية الغربية لتطويع الكون لإرادته واستخراج مقدراته لخدمته" (الحارث فخري عيسى، 2013م، ص32، 33).

يُستخدم مصطلح "الحداثي" للدّلالة على الفرد الذي يتبنّى ويطّبق الفلسفة الحداثية، والتي تعتبر واحدة من التيارات الفكرية المعاصرة، ومن الضروري تحديد مفهوم الحداثة لفهم الفرد الحداثي.

يمكن القول بأنّ الحداثيين هم دعاة التجديد والتحرر من قيود كل ما هو موروث انطلاقا من مناهج غربية معاصرة، وغرضهم من ذلك تحقيق تقدّم الإنسان في كل جوانب الحياة..

2.2 الحديث

أ-الحديث لغة: نقيض القديم. والحدوث: نقيض القِدَمةِ. حدَثَ الشيء يحدُثُ حدوثاً وحداثةً، وأحدثهُ هو، فهو محدثٌ وحديث، وكذلك استحدَثَهُ. (ابن منظور، 1414هـ، ج2، ص131)

ب-اصطلاحا: هو ما أضيفَ إلى النّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو وصفٍ خِلقِيٍّ أو خُلُقِيٍّ. (نور الدين عتر، 1418هـ-1997م، ص26)، أو هو ما أُثِرَ عن النّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ، أو فِعلٍ، أو تقريرٍ، أو صِفةٍ خَلقِيَّةٍ، أو سِيرةٍ سواء كان قبل البعثة أو بعدها (مصطفى السباعي1402هـ -1982م، ص47).

3.2 التعارض

أ-التّعارض لغة: يُطلق لفظُ "التّعارض" في اللغة ويستعمل لعدة معانٍ هي: المنع والظهور والمقابلة والمساواة (الجوهري1407هـ-1987م، ج3، ص1090، ولسان العرب لابن منظور، 1414هـ، ج7، ص167) .

ب-التّعارض اصطلاحاً: ذكرَ الأصوليون عدّة تعاريف لمفهوم التّعارض، أهمّها تعريف الزركشي في "البحر المحيط" بأنّه: "تقابلُ الدّليلين على سبِيل الممانعة" (الزركشي، دار الكتب العلمية، 1421هـ-2000م، ج4، ص407).

أمّا مفهوم التّعارض عند المحدّثين فيعرف بـ "مشكل الحديث" وهو:" الأحاديثُ المقبولة التي يشتبهُ معناها ويلتبسُ، فيُشعِرُ بحسب الظّاهرِ بالتّضادِ أو التّناقضِ، سواءٌ كان ذلك بين حديثٍ وحديثٍ، أو الحديث نفسهِ، أو حديثٍ وآية، أو الحديث وأصلٍ شرعي أو أمر عقلي أو عادي" (محمد بازمول، 1439هـ-2019م، ص15).

4.2 المقاصد

أ-المقاصد لغة: قَصَدَ يقْصِد قصداً فهو قاصِدٌ. والقصدُ استقامة الطريق، قال تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾ (النحل 9). والقَصْد: العدلُ (ابن منظور، 1414هـ، ج3، ص353).

ب-المقاصد اصطلاحا: عرّفها ابن عَاشور بقوله:" هي المعاني، والحِكَم الملحوظة للشّارع في جميعِ أحوالِ التشريعِ أو مُعظَمِها، فيدخل في هذا: أوصافُ الشّريعة وغايتُها العامّة والمعاني التي لا يخلو التّشريعُ عن ملاحظتها، ويدخُل في هذا أيضًا معانٍ من الحِكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنّها ملحوظة في أنواعٍ كثيرةٍ منها" (الطاهر ابن عاشور، 1425هـ-2004م، ج2، ص21)، وأمّا علاّل الفاسي عرّف المقاصد الشرعيّة بأنّها: "الغايةُ منها، والأسرارُ التي وضَعَها الشارعُ عند كل حكمٍ من أحكامها" (علال الفاسي، 1993م، ص7).

5.2 الخطاب

أ-لغة: جاء في اللّسان: الخطابُ والمخاطبةُ مراجعةُ الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان، والمخاطبة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن. قال الليث: إنّ الخُطبة مصدرُ الخطيب لا يجوز إلاّ على وجه واحد، والخطبةُ اسم الكلام الذي يتكلّم به الخطيبُ، فيوضعُ موضعَ المقصد (ابن منظور، 1414هـ، ج1، 361).

ب-اصطلاحا: هو "اللّفظ المتواضعُ عليه، المقصود به إفهامُ من هو متهيئٌ لفهمه" (الآمدي، 1402هـ، ج1، ص95). قال الجوّيني : "إنّ الكلام، والخطاب، والتّكلم، والتّخاطب، والنّطق، واحدٌ في حقيقة اللّغة، وهو ما به يصير الحيّ متكلِّما" (الجويني، 1399هـ-1977م، ص32).

يتميّزُ خطاب النّبي صلى الله عليه وسلم بقمّة البلاغةِ وروعةِ البيان، لكونه رسالة تحمل إلى الناس مقاصد الشريعة، وغايات العقيدة الصحيحة في كل زمان ومكان، يقول القاضي عياض:" وأما فصاحة اللّسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل الذي لا يجهل سلامة طبعٍ وبراعة منزعٍ، وإيجاز مقطعٍ، ونصاعة لفظٍ، وجزالة قولٍ، وصحة معانٍ، وقلّة تكلّفٍ، أوتي جوامعَ الكَلِمِ" (القاضي عياض، 2006م، ص54)

3.دعوى تعارض الأحاديث بعضها ببعضٍ.

يرى الحداثيّون أنّ روايات الأحاديث النّبوية متناقضةٌ فيما بينها؛ يردُّ بَعضُها بعضاً، وأنّها تحمل معانٍ غير صحيحة، حيث جعلوا هذا التّعارض الذي يُقرِّرونه سَبَباً في ردِّهم لكثيرٍ من الأحاديثِ الصحيحة، وطريقا للطّعن في المحدّثين ومنهجهم النّقدي، فتجدُهُم يتصيّدون الرِّوايات التي توهمُ في الظّاهر وجودَ تعارضٍ في ما بينها، ويحكمون بذلك على بُطلانها. يقول أحدهم:" ألا نرى في الإصرارِ على صحّة جميع هذه المرويات في الوقت ذاته...ألا نرى حقيقة ما ذهبنا إليه من أنّ ما يسمّى بعلمِ تأويل مختلف الحديث هو صناعةٌ بشريّة مبنيّة على تغييب العقل والمنطق، مبنيّةٌ على اعتبار جميع المرويات الصحيحة، مهما بلغت درجة التناقض بينهما، ومهما بلغت درجت مخالفتها لكتاب الله تعالى ولثوابت العلم و المنطق..." (عدنان الرفاعي،2008م، ص490).

1.3نموذجُ حديث النّهي عن التّنفس في الإناء.

الحديثُ الذي رواه البخاري في باب" النّهي عن التنفس في الإناء"، حديثُ أبي قتادة عن أبيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يتنفَّسْ فِي الإِنَاءِ، وَإِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَمْسَحْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا تَمَسَّحَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يتَمَسَّحْ بِيَمِينِهِ**» (البخاري، 1422هـ، ج7، ص112).

روى البخاري أيضاً في باب" الشّرب بنفسين أو ثلاثة" حديث ثمامة بن عبد الله، قال: كان أنسٌ، يتنفَّس في الإناء مرتين أو ثلاثاً، وزعمَ « أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم كانَ يَتّنفّس ثلاثا» (البخاري، 1422هـ، ج7، ص112).

لقد تناولَ بعضُ الحداثيّين هذين الحديثين بالدّراسة وتمسّكوا بالتّعارض الظاهري بينهما، واستنقصوا من صحيح البخاري، وشنّعوا على مصنِّفه روايته أحاديثَ متناقضة – بزعمهم–، ومن ضمنِ هؤلاء: عدنان الرِّفاعي الذي استشكل كلا الحديثين.

2.3 وجه الاستشكال:

الحديثُ الأول صريحٌ في النّهي عن التّنفس في الإناء، وأمّا الحديثُ الثاني فيه إثباتٌ للتّنفس في الإناء، قال عدنان الرِّفاعي:" تعارضٌ واضحٌ وصريحٌ بين هذين الحديثين...فالأمرُ المحمول في الحديث الأول «إذا شرب فلا يتنفس» يتعارض تعارضا تامّا مع العبارة في الحديث الثاني «كان النّبي يتنفس في الإناء مرتين»" (عدنان الرفاعي،2008م، ص554)، فالرفاعي هنا يقطعُ يقيناً بتعارض الحديثين حقيقةً.

لقد واصلَ الكاتبُ محاولته في إقناعِ القارئ بوجود التّعارض، قال:" وكلّ محاولات التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين لا تَجِدُ لهما طريقاً عند من يحترمُ عقلهُ، ويُدركُ قواعدَ اللّغة العربيّة...فمهما أوّلوا معنى التّنفس في الإناءِ، فإنّ الحديثَ الثاني يحمل النقيض لذلك، لأنّ عباراته تَحملُ ذات الصياغة، وبالتالي فكل تأويلٍ لمعنى التنفس يؤتى به من الجيوب، لا بدّ أن يَنسحبَ على الحديثين، وبالتالي لا يزول التّناقض..." (عدنان الرفاعي،2008م، ص554–555). يدّعى الرفاعي بأنّ توجيهات شُرَّاح الحديث لدفع التّعارض ومحاولاتهم لتأويل معنى التنفس غير مجديةٍ، وفي كلامه استنقاصٌ من طريقتهم وأنّها غير معقولة وغير مطابقةٍ لقواعد العقل واللّغة.

3.3 دفع الاستشكال:

أجابَ أهلُ العلم قديماً وحديثاً عن هذا الاستشكال؛ بالاعتماد على قواعد اللغة العربية و ما تدل عليه، وبيان المقصد الحقيقي من الخطاب النّبوي، حيثُ حَمَلوا كل حديثٍ على حالةٍ تَختلفُ عن الأخرى، مع عِنايتهِم بتفسير المعاني وفَهمِ السيّاق الذي جاء فيه الحديث النّبوي. قال ابن حجر:" كذا تُرجم مع أنّ لفظ الحديث الذي أورده في الباب كان يتنفّس، فكأنّه أراد أن يَجمع بين حديث الباب والذي قبله، لأنّ ظاهرهما التّعارض، إذ الأول صريحٌ في النّهي عن التّنفس في الإناء والثاني يثبت التّنفس، فحملهما على حالتين: فحالةُ

النّهي على التّنفس داخل الإناء، وحالة الفعل على من تنفَّس خارجه، فالأوّل على ظاهره من النّهي والثاني تقديره: كان يتنفّس في حالة الشُّرب من الإناء، قال ابن المنيّر: "أورد ابن بطال سؤال التّعارض بين الحديثين وأجاب بالجمع بينهما فأطنبَ، ولقد أغنى البخاري عن ذلك بمجرّد لفظ الترجمة، فجعل الإناء في الأول ظرفا للتنفّس، والنّهي عنه لاستقذاره، وقال في الثاني: "الشرب بنفسين"، فجعل النفس للشّرب، أي لا يقتصر على نَفَس واحد، بل يفصِلُ بين الشُّربين بنفسين أو ثلاثةٍ خارج الإناء، فعُرِفَ بذلك انتفاء التّعارض" اهـ (ابن حجر، 1379هـ، ج10، ص93).

صدَق من قال بأنّ فقهَ البخاري في تراجُمه، فقد ردّ ذلك التّعارض وبيّن المقصدَ من نهيِ النّبي صلى الله عليه وسلم عن التنفّس في الماء، وفعلُ البخاري في جمعهِ بين الحديثينِ ليس مجرّد رأيٍ، وإنّما هو مبنّيٌ على قواعدَ شرعيّة في الجمع بين النصوص، قال ابن الجوزي:" ونهى عن التنفس في الإناء، وفي حديث «كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الْإِنَاءِ»، أي في شُربه من الإناء، لا أنّ التنفّس في الإناء" (ابن الجوزي،1405هـ-1985م، ج2، ص425)، وقال ابن الأثير:" وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ «أَنَّهُ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الْإِنَاءِ ثَلَاثًا» يَعني فِي الشُّرب. الحَديثان صَحِيحَانِ، وهُما باختِلاف تَقديرين: أحدُهما أَن يَشرَب وَهُوَ يتنفَّس فِي الإِنَاءِ مِن غَيرِ أَن يُبينَه عَن فِيه، وَهُوَ مَكرُوهٌ، والآخَرُ أَنْ يَشْرَب مِنَ الْإِنَاءِ بِثَلَاثَةِ أنفَاسٍ يفصِل فِيهَا فَاهُ عَنِ الإِنَاءِ، يُقَالُ: أكرعَ فِي الإِنَاءِ نَفَساً أَو نفسَينِ، أَي جُرعةً أو جرعتين" (ابن الأثير، 1399هـ، 1979م، ج5، ص94).

3.3 الأثرُ المترتب على مقاصد الخطاب النّبوي الشريف:

إنّ ادّعاءَ التّعارض بين الأحاديثِ النّبوية وزَعم تناقضِ معانيها يوحي بإسقاط مكانةِ السنَّة النّبوية، والطّعن في قدسيتها، والتّشكيك في وحييتها، وذلك يستلزم التقليلَ من شأن الخطاب النّبوي الشريف، فمسألةُ التّنفس في الإناء خيرُ دليلٍ على ذلك، إذ أنّ القارئ لكلام عدنان الرفاعي يَعتقدُ من الوهلة الأولى بأنّ الخطاب النّبوي متناقضٌ يدور بين النهي عن الشيء وفعله؛ فتارة يردُ النّهي عن التنفس في الإناء، وتارة أخرى يفهم منه الجواز، غير أنّ العلماء لم يتركوا مجالا للتشكيك في مقاصد الخطاب النبوي الشريف، ولهذا كانت جهود المحدِّثين النقّاد بارزة في درء التّعارض الظّاهري بين الأحاديث، فصنّفوا في ذلك مصنّفاتٍ، وصار ذلك علماً سمّوه:" علم مُختَلفِ الحديث".

تجلّى من خلال عرض هذا المثال مقصدٌ تعليمي تربوي، فالنّبي صلى الله عليه وسلم أحسنُ الناس تعليماً وتربيةً، وقد علّم أمَّته كل شيءٍ يَنفعها، ومن ذلك تعليمه آداب الطعام والشراب وقضاء الحاجة، كما في هذا الحديث الذي وردَ فيه النّهي عن التنفس في الإناء عند الشرب، فإذا أراد أن يتنفس أثناء الشرب فليتنفس بعيدا عن الإناء؛ وهذا لئلا يستقذره غيره فتمتنع نفسه عن الشرب من هذا الإناء، وحتى لا يتغير الإناء بكثرة التنفس فيه، قال ابن حجر:" وجاء في النّهي عن النفخ في الإناء عدّة أحاديث، وكذا النّهي عن التنفس في الإناء؛ لأنّه ربما حصل له تَغَيُّرٌ من النَّفَسِ، إمّا لكون المتنفِّسِ كان متغيِّرَ الفم بمأكولٍ مثلا، أو لبُعدِ عهده بالسواك والمضمضة، أو لأنّ النَّفَس يصعد ببخار المعدة، والنفخ في هذه الأحوال كلها أشد من التنفُّس." (ابن حجر، 1379هـ، ج10، ص92).

قال ابن بطال:" التنفس فى الإناء منهي عنه كما نهى عن النفخ في الإناء، وإنّما السنَّة إراقة القذى من الإناء لا النفخ فيه، ولا التنفس، لئلا يتقذّره جلساؤه" (ابن بطال، 1423هـ-2003م، ج1، ص243).

إنّ الإرشاد النبوي للتنفس خارج الإناء ثلاث مرات يحمل في طيّاته حكمة بليغة، ويهدف إلى الوقاية من الأمراض. قال العيني:" والتنفس خارج الإناء أحسن في الأدب، وأبعد عن الشره، وأخف للمعدة، وإذا تنفس فيه؛ تكاثر الماء في حلقه وأثقل معدته، وربما شرق وأذى كبده، وهو فعل البهائم، وقد قيل: إنَّ في القلب بابين يدخل النفس من أحدهما ويخرج من الآخر، فينفي ما على القلب من الهمَّ أو القذى، ولذلك لو احتبس النفس ساعة؛ هلك الآدمي، ويخشى من كثرة التنفس في الإناء أن يصحبه شيء مما في القلب فيقع في الماء ثم يشربه فيتأذى به..." (العيني، 1979م، ج2، ص295).

4. دعوى تعارض الأحاديث النّبوية مع القرآن الكريم.

يسعى الحداثيون جاهِداً لإسقاط حُجِّيةِ السنَّة النّبوية كونها، الصورة التّطبيقية للإسلام، فيبحثون عن معاني الأحاديث النّبوية التي تتعارض في الظّاهر مع آيات القرآن الكريم، كما يَعتبِرُون القرآن هو المرجع الوحيد للأخذ والردّ، لأنّه -بزعمهم- يشمل كل ما يحتاجه المسلم، وتجدهم يتنقّصون من شأن السنّة النّبوية، فينفون بأنّها جاءت مبيّنةً لمجملِ القرآن ومخصصةً لعمومه، بل سبيلهم في ذلك عرضُ الأحاديث على القرآن، فإذا وجدوا مخالفةً له في الظّاهر سارعوا إلى إنكار هذه الأحاديث وإن كانت صحيحةً، وأقبلوا على الطّعن في روّاتها ومضانّها ومصادرها التي حوتها، ولا يدّخرون جُهدا في درء التّعارض

ومحاولة الجمع بين الأدلّة، والعرضُ عندهم هو إخضاعُ كل الأحاديث لميزان القرآن، فإن كان فيه مناقضة –ولو في الظّاهر– رفضوها، ويَرُدُّون بذلك كلّ حديثٍ جاء بحكمٍ لم ينصَّ عليه القرآن.

إنّ معيار المخالفة والاتفاق مع القرآن عند الحداثيين يكون كما قال جمال البنّا: " بالمقارنة بنصوص الآيات أو بالمقارنة بمفهوم الآيات في إجمالها والقيم والمثل التي هي روح الإسلام، كالحرص على العدل والحرية في العقيدة، والتنديد بالظلم والطغيان، والأمر بالإنفاق والوفاء بالعهود"، إلى أن قال:" وإعمال هذا المعيار سيجعلنا نستبعد قرابة نصف الأحاديث المتداولة بين الناس" (جمال البنّا، 1997م،ج2، ص248)، فيزعم جمال البنّا أنّ بالمعارضة يتبيّن أنّ نصف الأحاديث الصحيحة مردودة بسبب مخالفتها للقرآن.

1.4 نموذجُ حديث إخبار النّبي صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة بعد مائة عام.

الحديثُ الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قَالَ: صَلَّى بِنَا النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فلَمَّا سَلَّمَ قَامَ، فقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنهَا، لاَ يبقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ**» (البخاري، 1422هـ، 34/1، رقم 116)، ادّعى الحداثيون أنّ هذا الحديث يُعارضُ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف–187).

استشكَلَ أحمد صبحي منصور صحّة هذا الحديث وما يُشابهه من الأحاديث التي تُخبر بموعد قيام الساعة بعد مائة عام من إخبار النّبي صلى الله عليه وسلم بها، متّهما بذلك المحدّثين، وقد رمى البخاري بالكذب وأنه يدُسُّ الأحاديث المكذوبة عن النّبي صلى الله عليه وسلم في كتابه الصحيح، وذلك في محاولةٍ من الكاتب لتشويهِ صورة البخاري وصحيحه.

قال أحمد منصور تحت باب "البخاري ينسب للنّبي الأكاذيب والمتناقضات":"... قد نسبَ أحاديثَ عن موعد قيام الساعة، وهى مع مخالفتها لصريح القرآن الذى ينفي عن النّبي علمَ الغيب فإنّ هذه الأحاديث المنسوبة للنّبي أراد بها البخاري أن يجعل القارئ يتهم النّبي بالكذب.. كيف ذلك؟ اقرأ في أحاديث البخاري هذه الأقاويل عن موعدِ قيام الساعة... فالنّبي

لم يتحدث مطلقاً عن الغيب لأنه لا يعلم الغيب إلا الله.. ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾ (النمل 65)" (أحمد منصور، 2005م، ص151–153).

2.4 وجه الاستشكال

ظاهرُ الحديث أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم يعلمُ غيب الساعة–بزعمهم–، حيث أخبر بموعدها وأنّها بعد مائة سنة، وهذا يخالف صريح القرآن الكريم الذي بيّن أنّ الساعة من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، قال أحمد منصور مقررا ذلك :"..أحاديث عن موعد قيام الساعة، وهى مع مخالفتها لصريح القرآن الذى ينفي عن النّبي علم الغيب" (أحمد منصور، 2005م، ص152) .

أكّد الكاتب طعنهُ في البخاري محاولاً تشويه صورته للقارئ، مبيّنا وُجودَ التّناقض بين القرآن والحديث الذي أورده البخاري في صحيحه، حيث قال:" البخاري يسندُ للنّبي قوله بأنّ القيامة ستقوم بعد مائة عامٍ، وحين كتب البخاري تلك الأحاديث كان قد مضى على موت النّبي أكثر من مائتي عام، أي أنّ البخاري كتب هذه الأحاديث ليدفع القارئ إلى تكذيب النّبي...والقارئ إذا تحمّس للبخاري وجعله صادقاً في نقله لتلك الأحاديث وأنّ النّبي قد قال ذلك فعلاً فمعناه أنه يتهم النّبي بالكذب.. والأسلم لنا أن نرجع للقرآن وإلى قوله تعالى ﴿**يسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ**﴾ (الأعراف 187) " (أحمد منصور، 2005م، ص152، 153).

3.4 دفع الاستشكال

أجاب العلماء على هذا الاستشكال ببيان المعنى المراد من لفظ «**السّاعة**»، فلم يَفهَم أحمد صبحي رواية البخاري على حقيقتها، وإنّما حمل لفظ «**السّاعة**» على معنىً آخر، وفسّرها على أنّها القيامة، فتوهّم بذلك مخالفةَ الحديث للقرآن الكريم، والمتقرر عند أهل العلم أنّ الاختلاف الحقيقي بين السنَّة الصحيحة والقرآن مستحيل، وإنّما قد يكون في الظاهر فقط، فيُدفع هذا التّعارضُ بأحد طُرِق الجمع، نقل النووي رحمه الله عن القاضي عياض قوله:" هذه الروايات كلها محمولة على معنى الأول، والمراد بـ «**ساعتكم**»: موتهم، ومعناه موت ذلك القرن، أو أولئك المخاطَبُون" (النووي، 1392هـ، ج18، ص90–91)، والمتمعنُ يجد أنّ الكاتب لم يراعي السّياق، ولم يجمع الروايات في هذه المسألة، وهذا يدلُّ على عدم موضوعيته في تحري الحق والصواب.

دفع ابن رجب هذا الاستشكال خلال شرحه للحديث، قال:" أراد أنّ من كان موجوداً في وقت قوله ذلك لا يبقى منهم أحد على رأس مائةِ سنةٍ، فينخرم ذلك القرن، فظنَّ بعضهم: أنّ مراده: أنّ الساعة تقوم بدون مائة سنة، وهو وهمٌ ممّن ظنّ ذلك، ولذلك أنكره علي بن أبي طالب رضي الله عنه على من توهمه، ومقصود البخاري بهذين الحديثين: الاستدلال على جواز الموعظة وذكر العلم بعد العشاء، وأنّه ليس من السمر المنهي عنه، وقد كان ابن شِبرمة وغيره من فقهاء الكوفة يسمرون في الفقه إلى أذان الفجر، ونصّ الإمام أحمد على أنه لا يكره السمر في العلم" (ابن رجب، 1414هـ-1996م، ج5، ص161).

اتّضح إذاً أنّ سوء فهم الكاتب هو سبب استشكاله للحديث النّبوي، وهذا يُعدّ تقصيرا في تطبيق مسالك جمع الطرق بين الأدلّة التي ظاهرها التّعارض، وبالتالي يحصل خلَلٌ في فهم المقصد من الخطاب النّبوي.

4.4 أثر ذلك على مقصدية الخطاب النّبوي الشريف :

تُعَدُّ دعوى الحداثيّين في تعارض الحديث النّبوي مع القرآن الكريم وسيلةً للطعن في رواة الحديث ومصنّفات الأئمّة، ومن ثمّ إسقاط مكانة السنَّة النّبوية، والاكتفاء بالقرآن وجعله المرجع الوحيد في التّشريع، ويستلزم من ذلك ضرب مقاصد الخطاب النّبوي الشريف، ففي المثال السابق نموذجٌ من النماذج الكثيرة التي استغلها الحداثيّون في إسقاط السنَّة النّبوية، والمساس بوحييّتها وحجّيتها، والتزهيد من مقاصدها، إذ يَشتملُ خطابُ النّبي صلى الله عليه وسلم على أعظم المقاصد.

تتّضح المقاصد التربوية في تعليمه صلى الله عليه وسلم الصحابةَ ما يجوز السّهرُ من أجله وهو طلب العلم، وهذا ما استنبطه البخاري في ترجمته للباب، وأوضحه العيني في شرحه للحديث فقال:" مطابقة الحديث للترجمة "باب السمر في العلم" ظاهرةٌ، وهو أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم حدّث الصحابة بهذا الحديث بعد صلاة العشاء وهو سمر بالعلم" (العيني، 1979م، ص175).

تجلى في الحديث مقصد إيماني وعظيٌّ؛ يتمثّل في تذكير المؤمنين بالتفكر في مصيرهم الأخروي، وأنّ الدنيا هي دار فناءٍ، وأنّ الأعمار قصيرةٌ، وفيه تنشيطٌ للهممِ في طلب الآخرة وعدم الاغترار بالدنيا، وهذا هو المعنى الحقيقي الذي ذُكِرت من أجله لفظة «**السّاعة**»، قال ابن بطال:" فيه أنّ السّمر بالعلم والخير مباحٌ، ألا ترى أنه صلى الله عليه

وسلم أخبرهم بعد العشاء أنه لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد إلى رأس مائة سنة، وإنّما أراد –والله أعلم– أنه هذه المدة تخترم الجيل الذى هم فيه، فوعَظَهم بِقِصَر أعمارهم، وأَعلَمهم أنّها ليست تطول أعمارهم كأعمار من تقدم من الأمم ليجتهدوا في العبادة، وقد سمر السّلف الصالح في مذاكرة العلم" (ابن بطال، 1423هـ– 2003م، ج1، ص192).

لقد تناسى أحمد منصور هذا المقصد العظيم، ولم يبذل أيّ جهدٍ في بيان حقيقة خطاب النّبي صلى الله عليه وسلم، ولم ينتبه إلى هذه الجوانب المقاصدية، بل اكتفى باتّهامه أنّ المحدّثين أدرجوا أحاديثَ مكذوبة في مصنّفاتهم، وهو أمر يدُلُّ على الجهل بمنهج المحدّثين النّقاد في دراستهم للأحاديث النّبوية.

يُستفادُ من المثال أنّه لابد من معرفةِ السياق الذي وَرَدَ فيه الحديث للوصول إلى المقصد من خطاب النّبي صلى الله عليه وسلم، إذ أنّ تجاهل السياق يؤدِّي إلى فهمٍ يخالفُ القرآن الكريم، ومن ثمّ تعطيل مقاصد الخطاب النّبوي الشريف.

5. دعوى تعارض الأحاديث النّبوية مع النّظر(العقل، الواقع والعلم التجريبي).

من أسُسِ الحداثة ترسيخُ مبدأِ العقلانية أو عَقلَنَة النصوص، وإعطاء الأولويّة للعقل في تحليل النّصوص وإصدار الأحكام، وتحريرها من قيود القواعد و الأصول الشرعيّة، فيعتبرون الدّين الإسلاميّ مبنيٌّ على موافقة العقل، وأنّه لا يمكن أن يكون شيءٌ في الدين يُخالِف المعقول، فطعنوا في الأحاديثِ النّبوية بحجّة أنها تخالِفُ عقولهم، فما يَقبلُه العقل عندهم فهو من الدين، وما يرفضه فليس من الدين، وأسقطوا بذلك منهج النّقاد المحدّثين في دراستهم للأحاديث النبوية، يقول محمد توفيق صدقي في ذلك: "وخلاصة القول في هذا الموضوع أنّنا يجب علينا الاقتصار على كتاب الله تعالى مع استعمال العقل والتصرف، أو بعبارة أخرى "الكتاب والقياس"، أمّا السنَّة فما زاد منها على الكتاب، إن شئنا عملنا به، وإن شئنا تركناه" (توفيق صدقي،1324هـ –1906م، ج9، ص515).

استدلّ الحداثيون على دعواهم هذه ببعض الأحاديث التي ظنّوا حسبَ عقولهم القاصرة أنّها تُخالفُ منطق العقل، فالسنَّة النّبوية تابعة للعقل عندهم وليس العكس، ويزعمون أنّ هدفهم بذلك هو القضاء على الخرافات والأساطير الدخيلة على الدين الإسلامي، ويتفرّع من ذلك تناولهم للأحاديث النبوية بمنطقٍ عقلاني يتماشى مع المعرفة الحديثة والواقع والعلم التجريبي، فيرُدُّون الأحاديث النّبوية التي تُعارض ذلك.

1.5نموذجُ حديث حديث الذُّباب

الحديثُ الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنه قال: قَالَ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا وَقَعَ الذُّباب فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالأُخْرَى شِفَاءً**» (البخاري، 1422هـ، ج4، ص130).

استشكل الطبيب محمد توفيق صدقي هذا الحديث لأنّه مخالف للنّظر بزعمه، حيث قام بنقده وإيراد الشُّبه عليه، وادّعى أنّ العقل والواقع والعلم التجريبي يُثبت خلاف هذا الحديث، ولم يتوانى في الاستنقاص من قدر الأحاديث الصحيحة بزعمه وجودَ الاستشكال فيها.

2.5 وجه الاستشكال

يرى توفيق صدقي أنّ هذا الحديث يعارضُ العقل والقياس والعلم التجريبي والواقع، منكراً مسألةَ وجود الداء في جناحٍ والدواء في جناحٍ آخر، فقال معلِّلا إبطاله للحديث:" إنّ من عادة الذُّباب أن يجتمع على القاذورات والنّجاسات، ثم ينتقل منها على طعام الإنسان أو يسقط في شرابه أو يقف فوق عينيه، وبذلك تنتقل جراثيم الأمراض إلى الإنسان وتنتشر بين أفراد هذا النوع، –واستشهد على ذلك بما قرره أطباء الإنجليز في حرب الترنسفال من انتقال العدوى في أفراد الجيش بواسطة الذُّباب...إذا وقف الذُّباب على الأعين وجب طرده في الحال وإذا وقف على الطعام أو سقط في الشراب فالأسلم تطهيرهما بالنار".–ثم بدأ بالطعن في راوي الحديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي مروياته– قال:" أمّا ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النّبي صلى الله عليه وسلم فهذا الحديث مشكل وإن كان سنده صحيحًا، فكم في الصحيحين من أحاديث اتضح لعلماء الحديث غلط الرواة فيها...، وكم فيهما من أحاديث لم يأخذ بها الأئمة في مذاهبهم، فليس ورود هذا الحديث في البخاري دليلاً قاطعًا على أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قاله بلفظه؛ مع منافاته للعلم وعدم إمكان تأويله...حديث الذُّباب هذا رواه أبو هريرة، وفي حديثه وتحديثه مقال بين الصحابة أنفسهم خصوصًا فيما انفرد به كما يُعلم ذلك من سيرته" ولم يكتفي الكاتب بذلك في إبطاله لهذا الحديث، بل بلغ به الحال إلى تصنيف كلام النّبي صلى الله عليه وسلم في الذُّباب، وجعله من الأمور الدنيوية التي لا يجب الأخذُ بها، قال:" وهَبْ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك حقيقة، فمن المعلوم أنّ المسلم لا يجب عليه الأخذ بكلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في

المسائل الدنيوية المحضة التي ليست من التشريع، بل الواجب عليه أن يمحصّها ويعرضها على العلم والتجربة" (محمد رشيد رضا، 1346هـ، ج29، ص37).

3.5 دفع الاستشكال.

كَثُرَ التشغيب على هذا الحديث قديماً وحديثاً، وقد اعتنى العلماء بدفع الشُّبهِ عنه، فأدرجه أصحاب المصنّفات في باب "مُشكل الحديث" ودفعوا عنه التّعارض، قال ابن قتيبة: "قَالُوا حَدِيثٌ يُكَذِّبُهُ النَّظَرُ: «**إِذَا وَقَعَ الذُّبابُ فِي الْإِنَاءِ**»" (ابن قتيبة، 1419هـ-1999م، ج1، ص334)، ثم أوردَ الحديث كاملا وما عليه من شُبهٍ، وما استُشكِلَ عليه، ثمّ ردّ على ذلك، كما اعتنى به شرّاح الحديث عناية كاملة.

قال الخطّابي في دفعه للشّبهة:" وهذا سؤالُ جاهلٍ، أو متجاهل، فإنَّ الذي يجد نفسَه ونفوسَ عامة الحيوان قد جُمِعَ فيها بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وهي أشياء متضادة، إذا تلاقت تفاسدت، ثم يرى أنَّ الله سبحانه قد ألَّف بينها، وقهرها على الاجتماع، وجعل منها قُوى الحيوان التي بها بقاؤها وصلاحها؛ لجدير أن لا يُنكر اجتماع الداء والشفاء في جزأين من حيوانٍ واحد، وأنَّ الذي ألهَمَ النَّحلةَ أنْ تتَّخِذ البيت العجيب الصِّنعة، وأنْ تُعَسِّلَ فيه، وألهم الذَّرةَ أنْ تكتسب قُوتَها، وتدَّخره لأوان حاجتها إليه، هو الذي خلق الذُّبابة، وجعل لها الهداية إلى أنْ تُقدِّمَ جناحًا، وتؤخِّر جناحًا، لِمَا أراد من الابتلاء الذي هو مدرجة التَّعبد والامتحان الذي هو مضمار التَّكليف، وفي كلِّ شيءٍ عبرةٌ وحِكمة، وما يذَّكَّر إلاَّ أولوا الألباب" (الخطّابي، 1351هـ-1932م، ج4، ص259).

محمد توفيق صدقي لم ينتبه لما ذكره الخطّابي عن الأمور المتضادّة التي تجتمع في شيءٍ واحد بالرغم من كونه طبيب! بل كان همّه الطعن في هذا الحديث وراويه، بهدف إسقاط بقية الأحاديث في هذا النّسق، وبغرض التشكيك في حجية السنَّة النّبوية وضربِ مقاصدها.

يمكن الردّ أيضا على زعم محمد صدقي بقول الباجي عندما علّق على هذا الحديث، حيث قال:"... فلو كان ينجُس بالموت وينجُس ما مات فيه لما أُمِرنا أن نُفسد الطعام والشراب بغمسهِ فيه، فإنّه بذلك يموت في الغالب، ومن جهة المعنى: أنَّ هذا ليس له نفسٌ سائلة فلم ينجس بالموت كالجراد" (الباجي، 1332هـ، ج1، ص61).

4.5 أثر ذلك على مقصدية الخطاب النّبوي الشريف

إنّ ادّعاء مخالفة الأحاديث النّبوية لما تقتضيهِ قواعد العقل والنّظر والواقع والعلم التّجريبي يؤدّي لا مَحالة إلى ازدراء السنَّة النّبوية في أعيُنِ القرّاء، وفيه أيضا تعطيلٌ للفهم المقاصدي للخطاب النّبوي الشريف، فيصيرُ كلام النّبي صلى الله عليه وسلم كأي كلامٍ آخر، وهذا ما يتبادر في ذهن القارئ لكلام الحداثيّ توفيق صدقي، فيَخطُرُ للقارئ استقذار ما أمر النّبي صلى الله عليه وسلم بفعله، وهذا في الحقيقة طعنٌ في النّبي صلى الله عليه وسلم وسنّته المطهّرة، إلاّ أنّ علماء الإسلام والمحدّثين النّقاد لم يتركوا مجالاً للتّشكيك في مقاصد الخطاب النّبوي الشريف.

يُستنبطُ من خلال دراسة هذا الحديث وما تَعرَّض له من استشكالاتٍ عدّة مقاصد، ففي سياق خطاب النّبي صلى الله عليه وسلم وأمر الصّحابة رضي الله عنهم بغمس الذُّبابة ثم سحبها، وتدرُّجه صلى الله عليه وسلم في الخطاب بإخبارهم أنّ في جناحها الدّاء وفي الآخر الدواء فيه مقصدٌ تعليمي تربوي؛ يدلُّ على أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم أحسنُ الناس تعليما وتربيةً؛ حيثُ علّمهم أدباً عظيما من آداب الأكل، وأرشدهم إلى حلّ مُشكلٍ لا يمكن الحذر منه؛ وهو وقوع الذُّباب على الطعام، وهذا يحصل في كل زمان ومكان أينما وُجد الذُّباب، فقلّ أن يَسلم منه طعامُ أحدٍ، قال ابن القيم :" ...ووَجهُ الاستدلال به أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم أمر بمقله، وهو غمسُهُ في الطّعام، ومعلومٌ أنّه يموت من ذلك، ولا سيما إذا كان الطعام حارًّا، فلو كان ينجّسُهُ لكان أمرا بإفساد الطعام، وهو صلى الله عليه وسلم إنّما أمر بإصلاحه..." (ابن القيم، 1415هـ، 1994م، ج4، ص102).

يُستنبط منه كذلك مقصد التيسير، وأنّ الله عزّ وجل لا يكلّف نفسا إلاّ وسعها؛ فلو أنّ كلّ طعامٍ وقع عليه ذبابٌ رماه الناس لفُقِدَ الطعام بسبب التبذير والإسراف، وفي ذلك تيسيرٌ على الأمّة ورفع الحرج عنها.

كذلك الذي يدقّق النّظر يجد أنّ من مقاصد خطاب النّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث هو المقصد الطبيّ في حفظِ النفس، وقد بيّن ابن القيم ذلك في قوله:" وأما المعنى الطبي، فقال أبو عبيد: معنى امقلوه: اغمسوه ليخرج الشفاء منه، كما خرج الداء، يقال للرجلين: هما يتماقلان، إذا تغاطا في الماء، واعلم أنّ في الذُّباب عندهم قوة سمّية يدل عليها الورم، والحكة العارضة عن لسعه، وهي بمنزلة السلاح، فإذا سقط فيما يؤذيه، اتقاه بسلاحه، فأمر النّبي صلى الله عليه وسلم أن يقابل تلك السمّية بما أودعه الله سبحانه في

جناحه الآخر من الشفاء، فيغمس كله في الماء والطعام، فيقابل المادة السمّية المادة النافعة، فيزول ضررها، وهذا طبّ لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارج من مشكاة النّبوة، ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفّق يخضع لهذا العلاج، ويقر لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق، وأنه مؤيّد بوحي إلهي خارج عن القوى البشرية، وقد ذكر غير واحد من الأطباء أنّ لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذُّباب نفع منه نفعاً بيّنا، وسكّنه، وما ذاك إلا للمادة التي فيه من الشفاء، وإذا دلك به الورمَ الذي يخرجُ في شعر العين المسمى شعرة بعد قطع رءوس الذُّباب أبرأهُ.." (ابن القيم، 1415هـ-1994م، ج4، ص103).

يُمكِنُ استنباطُ مقصدٍ عظيم آخر من خطاب النّبي صلى الله عليه وسلم لصحابته رضي الله عنهم في هذا الحديث؛ وهو المقصد العقائدي الإيماني، ويتجلى ذلك في إرشاد الصحابة الكرام وإخبارهم بأمرٍ غيبيّ عنهم، فما كان منهم إلا أن قالوا سمعنا وأطعنا؛ إيمانا منهم بالنّبي صلى الله عليه وسلم وسنّتة المطهرة.

6. خاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والحمد لله أولاً وآخراً على تيسيره في إتمام هذا البحث، وقد خَلُصَ البحث إلى النتائج التالية:

1. أهمية دراسة الأحاديث المشُكَلَة التي تحتمل تعارضاً في الظاهر، وضرورة العناية بها في عصرنا الحاضر خاصةً، حيث كَثُرت فيه دعوات كثيرة للتّشكيك في السنَّة النّبوية، ورميها بوجود التناقض بينها وبين النصوص والقواعد الشرعيّة الأخرى، فالهدف هو ضرب حجيتها كمصدر من مصادر التشريع.
2. تبيّن من خلال البحث أنه لا يوجد تعارضٌ حقيقي للأحاديث النّبوية فيما بينها، أو مع القرآن الكريم، أو مع العقل والحس والواقع، وإنّما هو تعارض ظاهريّ فقط، كما أنّ دعوى الحداثيين في التّعارض باطلة.
3. تبيّن أنّ هدف الحداثيّين في إثباتهم وجود التّعارض بين الأحاديث النّبوية وغيرها من القواعد الشرعيّة إنّما هو محاولةٌ منهم لتشويه صورة السنَّة النّبوية، ولضرب حجيتها والطعن في وحييتها.
4. دعوى الحداثيين في التّعارض تؤدي إلى الاستنقاص من السنَّة النّبوية، وبالتالي الازدراء بمقاصد الخطاب النّبوي الشريف.

5. اتّضح من خلال البحث أنّ درء التّعارض بين الأحاديث النّبوية وغيرها من النُّصوص والقواعد الشرعيّة أو ما يعرف بـ"علم مشكل الحديث" يُعدُّ وسيلة لبيان وفهم مقاصد الخطاب النّبوي الشريف.
6. ضرورة العناية بفهمِ مقاصد الخطاب النّبوي الشريف في ضوء الجمع بين النصوص والأدلة الشرعيّة.
7. مقاصد الخطاب النّبوي الشريف صالحة لكل زمان ومكان.
8. تبيّن أنّ الخطاب النّبوي الشريف له مقاصد صريحةٌ سهلة الفهم، ومقاصد أخرى تحتاج لاستنباطها عدة وسائل من بينها: الخلفيّة المعرفية، العلم بقواعد اللغة، معرفة السياق وأسباب الورود ..إلخ.

*** *** ***

التوصيات:

1. ضرورة الاهتمام بعلمِ مشكلِ الحديث ومسالك دفعِ التّعارضِ عن الحديث النّبوي الشريف، والبحث في طرق العلماء وكيفية تناولهم لهذا الموضوع، خاصّة في هذا العصر الذي كَثُرت فيه الهجمات من مختلف الاتجاهات المعاصرة كالحداثيين.
2. تبيّن من خلال البحث مدى أهميّة دفع الاستشكالات الواردة حول الأحاديث النبوية، وضرورة إزالة اللُّبس عنها، وردّ الشُّبه حولها، وتبسيط المسائل ليفهمها المتلقي على معناها المراد، ودور كل ذلك في حِفظ السنّة النبوية والدفاع عن حجيّتها و وَحْيِيَّتها وفهم مقاصدية الخطاب النّبوي الشريف على أكمل وجهٍ، حيث لم أقف على بحوثٍ أفردتْ دراساتٍ لمشكلِ الحديث وأثره على مقاصدية الخطاب النّبوي، فأدعو الباحثين لمواصلة دراسة هذا النوع من البحوث، إذ توجد عدّة أحاديث يمكن خصّها بهذه الدراسة، مثل: –حديث طواف النّبي صلى الله عليه وسلم على نسائه بغسلٍ واحدٍ: استشكل هذا الحديث جمال البنّا وزعم أنّه معارض للعقل. وكذلك حديث سجود الشمس، وحديث «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللّحم» استشكل كلاهما عدنان إبراهيم وادّعا أنّهما يعارضان العقل. وأيظاً حديث سماع صياح الديك، وقد استشكله جمال الكردي بحجّة أنّه مخالفٌ للعقل. وغيرها أحاديث

كثيرة تحتاج إلى دراسة مشابهة لفهم المقصد من الخطاب النّبوي الشريف، فيمكن دراستها وفق المنهجية المتّبعة في هذا البحث.

3. أن ينبري الباحثون وطلبة العلم إلى استكمال النقائص فيما يتعلق بتعارض الأحاديث النّبوية، ودفع التعارض ودلالته على مقاصدية الخطاب النّبوي الشريف، خاصة في إطار الدراسات المعاصرة والحداثيّة.

7. قائمة المراجع:

- *ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد، ، النهاية في غريب الحديث والأثر، بيروت، المكتبة العلمية. (1399هـ-1979م)*
- *ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمان، غريب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، (1405هـ-1985م)*
- *ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، زاد المعاد، بيروت، مؤسسة الرسالة، (1415هـ/1994م)*
- *ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، السعودية ، مكتبة الرشد، (1423هـ-2003م).*
- *ابن رجب، زين الدين عبد الرحمان ابن أحمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المدينة النّبوية، مكتبة الغرباء الأثرية، (1417هـ-1996م)*
- *ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (1425هـ-2004م)*
- *ابن قتيبة الدينوري، عبد الله، تأويل مختلف الحديث، بيروت، المكتب الإسلامي، (1419هـ-1999م)*
- *ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (1414هـ)*
- *الآمدي، أبو الحسن سيف الدين، الإحكام في أصول الأحكام، بيروت، المكتب الإسلامي، (1402هـ)*
- *الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف، المنتقى في شرح الموطأ، مصر، مطبعة السعادة، (1332هـ)*
- *البخاري، محمد ابن إسماعيل، صحيح البخاري، بيروت، دار طوق النجاة، (1422هـ)*
- *البنّا، جمال، نحو فقه جديد، القاهرة، طبعة دار الفكر الإسلامي، (1997م)*

- الجوهري، إسماعيل، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت، دار العلم للملايين، (1407هـ-1987م)
- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، الكافية في الجدل، القاهرة، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي، (1399هـ-1977م)
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، معالم السنن، حلب، المطبعة العلمية، (1351هـ- 1932م)
- رشيد رضا، محمد، ، فتاوى المنار، مجلة المنار، المجلد29، (1346هـ)
- الرفاعي، عدنان غازي، محطات في سبيل الحكمة، سوريا، مركز الذّكر للدراسات الإسلامية، (2008م)
- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين، البحر المحيط في أصول الفقه، بيروت، دار الكتب العلمية، (1421هـ-2000م)
- السباعي، مصطفى حسني، السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت- لبنان، للمكتب الإسلامي بدمشق، (1402هـ-1982م)
- صدقي، محمد توفيق، ، الإسلام هو القرآن وحده، مجلة المنار، المجلد9، عدد7-9، (1324هـ-1906م)
- عتر، نور الدين، منهج النّقد في علوم الحديث، دمشق، دار الفكر، (1418هـ-1997م)
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، (1379هـ)
- العيني، أبو محمد، بدر الدين، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1979م)
- الفاسي، علال بن عبد الواحد، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (1995م)
- فخري، الحارث، الحداثة وموقفها من السنَّة النّبوية، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، (2013م)
- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى، الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، المغرب ، دار الرشاد الحديثة، (2006م)

- محمد بازمول (1437هـ-2017م)، علم مختلف الحديث ومشكله، https://uqu.edu.sa/mobazmool/29778،بتاريخ:(1439/01/27هـ-2017/10/17 م)
- منصور، أحمد صبحي، القرآن وكفى، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، (2005م)
- النووي، أبو زكريا يحي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1392هـ)